والعربية وان يعطيها في مقابلة ذلك الاستانة وما شاءت من الولايات المسيحية في اوربا ويعدها بالمساعدة المعنوية على امتلاك الهند ثم يجعل التخت في دمشق الشام ويبتني بعد ذلك ويجدد في عمران البلاد العربية التي اهملها او خربها سلفه من السلاطين ويجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ويجتهد في استعراب الترك أجمعين ويؤلف منهم ومن عرب العراق ونجد والحجاز قوة عسكرية منظمة ويقيم الشرع . فاذا هو فعل ذلك يكون له ملك عظيم وعز منيع ويأمن غائلة الخارجين بدعوى الخلافة . . فاذا لم ترض فرنسا باعادة مصر عثمانية محضة فليكتف ببلاد الاناطول والاكراد والعراق وسوريا وبلاد العرب . فاذا وفقت دولته لترك الجنسية التركية والتعصب لها وأصلحت هذه البلاد وعززتها فان ملكها يكون بها عظيما ويتيسر لها بعد ذلك القيام بعمل عظيم

واذا بقيت الدولة على حالها فغير مستقبلها مع أوربا ان يتركوا لها بلاد الترك الخالص المسلمين تحكمها باستقلال أو تحت حماية، وشرها (وقاها الله من شرها) ان يمحى أثرها بالتدريج حتى لا يبقى لها عين ولا أثر

﴿ البابا لاون الثالث عشر ـ تتمة ترجمته ﴾

بينا في التبذة الاولى التي نشرناها في الجزء التاسع ان الاخطار كانت محدقة بكرسي البابا عندما جلس عليه لاون الثالث عشر ووعدنا بالالماع الى سلوكه في مقاومتها وما كان من نجاحه فيه فنقول : ان الدول الكاثوليكية التي يدين أكثر رعاياها بالخضوع الى البابا كفرنسا والنمسا وايطاليا كانت عاملة على محو سلطته فما بال روسيا الارثوذكية وانكلترا وألمانيا البروتستنتيين لا يكن من اعدائه العاملات على محو ومحو طائفته من الارض وقد كان بين أهل مذهبه ومذهبيين من الخلاف وسفك الدماء ما كان ؟

سلطة البابا رسمية دولية وللدول عنده وكلاء كالسفراء عند الملوك وقد كان أول عمله استمالة الملوك العظام والتوسل اليهم بالرفق بالكاثوليك فنجح في ذلك حتى عاد اليه اعتباره وتيسر لطائفته السير في طرق الترقي في كل مملكة كانوا مهددين فيها حتى تقدموا تقدما مبينا . ولم تبق حكومة لم تسالمه ويسالمها الا ايطاليا التي أزالت ملكه ونزعت سلطته المدنية (أو الزمنية) واستولت على أملاكه وفرضت له مبلغا

عظيما من المال بدلا عنها فلم يقبله، ومن يبيع الملك بالمال ؟ ولكنه على استمراره على عداوة الحكومة لم يتصرف في استمالة الشعب الايطالي ومن ذلك أنه بعث وفدا دينيا الى ملك الحبشة يسأله اطلاق الاسرى الذين أسرهم من جند ايطاليا في الحرب المعروفة.

سياسته مع الدول الكاثوليكية : قد كان من اساءة فرنسا والنمسا في معاملة بيوس التاسع والإنحاء على كرسيه ماأومأنا اليه في الجزء التاسع وقد استطاع ان يسالمهما مع حفظ حقوقه فكان يحث الكاثوليك على الخضوع للحكومة الجمهورية التي اختارتها الامة لنفسها على ان أكثر أعدائها منهم . وكذلك جامل النمسا بقدر الامكان وأحسن في تعزية عاهل النمسا والمجر جوزيف عند وفاة ولي عهده والتجائه اليه حتى قيل انه لم يرد الزيارة لملك ايطاليا حلفه مصانعة للبابا والنمسا لرضاه . وقد كانت الصلات السياسية تقطعت بين ايجكا والفاتيكان فأعاد رابطتها حتى صارت حكومة البلاد الى وزارة كاثوليكية . وأما سياسته مع الدول غير الكاثوليكية فهي السياسة المثلى وانا نتوسع بعض التوسع فيها فنقول

سياسته مع ألمانيا : يعرف التاريخ ما كان في ألمانيا من اضطهاد الكاثوليك بسد سفك تلك الدماء في التنازع الديني بينهم وبين البرتستنت فان المانيا مهد لوثر مؤسس المذهب الثاني الذي كان مبدأ كل ما كان . وقد كان البرنس بسمارك داهية السياسة يبغض الكاثوليك ويناصبهم . فلما ولي المترجم كان أول عمله العناية بمسالمة المانيا واستمالتها وجمع كلمة الكاثوليك فيها فكتب الى عاهل الالمان بتوليته . ثم رأى البرنس بسمارك اتحاد الكاثوليك وارتباطهم بالبابا ورأى نفسه محتاجا اليهم في مقاومة الاشتراكيين في مجلس النواب فلم يرد من استبدال الملاينة بالمخاشنة فكتب الى البابا رقيما أطراه فيه اطراء لم يكن يخطر بالبال وكان من اعتبار المانيا للبابا أن حكمته في الخلاف بينها وبين أسبانيا على جزائر كارولين فكان من حكمته ودهائه ان تمكن من إرضاء الفريقين معا بما حكم به

ثم انه أسلس لالمانيا حتى أطمع عاهلها باينه في إرضائه بأن تكون دولته حامية الكاثوليك في الشرق ولهذا الطمع زاره غليوم الثاني مرتين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٨٩٣ ولكنه لم ينل منه هذه الامنية ولم ييأس منها . ولولا دهاؤه لسلب فرنسا التي قاومته وقاومت الدين أشد مقاومة هذه المزية — حماية الكاثوليك — وهي أقوى آلتها السياسية في الشرق

ومنحها لعدوتها (المانيا) ولكنه لم يجب ان يزيد الخرق اتساعا بينه وبينها

سياسته مع انكلترا : لم يكن حظ الكثلكة في انكلترا مع الاصلاح بأمثل من حظها في المانيا فقد اضطهد الكاثوليك في تلك الجزائر وسفكت دماؤهم وسيموا خسفا وهوانا في القرون الثلاثة السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر وكذلك الثلث الاول من القرن التاسع عشر حتى قل عددهم وانطمست رسومهم في تلك البلاد فلم يبق من الانكليز على مذهب الكنيسة الرومانية الا نحو ١٦٠ ألفا

أحسن ليون الثالث عشر التودد لملكة الانكليز واختار لرياسة الكنيسة في بلادها بعض رجاله الدهاة حتى حسنت الحال وصارت الملكة تتلقى الكرادلة الوافدين عليها من قبله بالحفاوة العظيمة بل صاروا يتقدمون في قصرها على رئيس اساقفة (كنتربري) رئيس الكنيسة الانكليكانية الرسمي الذي يتوج ملوك الانكليز. وأعطى الكاثوليك حرية من الحكومة الانكليزية لم تكن تصل اليها أمانيهم فارتقوا ارتقاء مبينا وزاد عددهم حتى صار البروتستنت يرجعون الى الكثلكة وحتى طلب بعض قسوسهم رجوع الكنيسة الانكليكانية الى رسوم الرومانية فطمع البابا المترجم باتحاد الكنيستين وكتب يدعو الى ذلك . ويقول العارفون انه لو قدر على ترك بعض الرسوم والتقاليد التي لا يمكن أن يطيقها أهل مذهب الاصلاح بعد ما نفضوا من عقلها لتم له ما يريد

أرأيت الكاثوليك الذين كانوا في أول القرن التاسع عشر يعدون في انكلترا بالالوف إنهم صاروا يعدون بالملايين فقد جاء في إحصاء سنة ١٨٩١ ان عدد الكاثوليك في انكلترا نفسها مليون ونصف وفي إيرلاندة ٩٥٦ و٥٤٩ و٣ وفي سكوتلندة ٣٥٦٠٠٠ وتبع هذا التقدم والنمو في بلاد الانكليز التقدم والنمو في مستعمراتها حتى علم من ذلك التقويم ان عددهم في البلاد والمستعمرات يزيد على عشرة ملايين ونصف وان لهم فيها من كراسي رؤساء الاساقفة ٢٨ ومن كراسي الاساقفة ١٠٥

ونخص الهند بالذكر فنقول ان عدد الكاثوليك في الهند لم يكن يزيد في أوائل القرن التاسع عشر على نصف مليون ولم يكن لهم الا ثلاثة اساقفة وقد تبين من الاحصاء الذي أشرنا اليه ان عددهم صار يزيد على مليونين وان لهم ٣٣ كرسيا اسقفيا و ٨٠٠ كاهن أوربي و ٦٥٠ كاهنا هنديا و ٦٠٠ راهبة أوربية و ٢٠٠ راهبة هندية و ٢٠٠

راهب من جمعية الاخوة (فريز) و ٧٠ مدرسة كبرى و ٢٢٠٠ مدرسة ابتدائية وتلامذة هذه المدارس مئة ألف وان لهم مدرسة دينية خاصة (على أن جميع مدارسهم دينية) فيها ستة آلاف تلميذ يكونون كلهم دعاة للدين ورهبانا وقسيسين . وان لهم أيضا ٩٨ ملجأ للايتام فيها ٥٨٠٠ ولد . وقد زار ملك الانكليز البابا في هذه السنة . ولما مرض مرض الموت كتب اليه بخطه يسأله عن صحته كما كتب اليه عاهل المانيا بخطه

سياسته مع روسيا : الخلاف بين الكنيسة الرومانية والكنيسة الشرقية التي يحميها قيصر روسيا وأكثر رعيته من أتباعها قديم كان ولم يكن في الدنيا بروتستانت وقد كانت روسيا في سرور عظيم من قيام أوربا مناهضة البابا وكنيسته ولم تقصر في اضطهاد كاثوليك بلادها . وكانت الصلات السياسية قد تقطعت بين هذه الدولة وبين الفاتيكان في عهد البابا بيوس التاسع فلما جاء بعده ليون الثالث عشر كان أول شيء عمله في تلافي ما سبق ان أرسل كتابا بخط يده الى القيصر يخبره فيه بتوليته ولما كاد النهلست للقيصر وحاولوا اغتياله سنة ١٨٧٩ و ١٨٨٠ فنجا من كيدهم كتب اليه البابا يهنئه بذلك فكان لهذه المجاملة من التأثير ما حمل القيصر على التساهل في تعيين الاساقفة للكاثوليك في بلاده وأعيد أسقف ورسو من منفاه في سيبريا . وكتب البابا الى أساقفة بولندا يأمرهم بالخضوع لحكام بلادهم وقوانينها وبحث العوام على ذلك وأرسل سفيرا من قبله لحضور تتويج القيصر الحالي سنة ١٨٩٦

سياسته مع الدولة العلية : ان هذه الدولة تخالف مع البابا في أصل الدين لا في المذهب ولكن التساهل الذي تقضي به طبيعة الاسلام جعل الكاثوليك في بلادها أحسن حالا منهم في جميع البلاد الاوربية أيام ذلك الاضطهاد والتسافك في الدماء . وقد قابل البابا السياسي هذه المعاملة الحسنة بالشكر فازدادت المودة بينه وبين السلطان العثماني . وقد أرسل السلطان مندوبا خاصا الى رومية لتهنئة ليون الثالث عشر بتنصيبه وقد اجتهد السلطان أيضا بالفصل في الخلاف الذي كان من الارمن الكاثوليك والشقاق الذي كان من الكلدان الكاثوليك فكان البابا يعلن الشكر له على ذلك . ولما احتفل بعيد البابا الكهنوتي (يوبيله الفضي) سنة ١٨٨٧ أرسل السلطان عبد الحميد يهنئه بهدية نفيسة وهي خاتم من جوهرة يتيمة كبيرة الحجم بيضية الشكل تنبعث منها أشعة تتعكس

أنوارها على الزوايا فيخال الناظر اليها انها مجموع أحجار كريمة تتراءى فيها ألوان العليف التي في قوس السحاب وكانت هذه الجوهرة من النفائس المحفوظة في خزائن سلاطين آل عثمان . وقد وضع الخاتم في غلاف من الذهب الوهاج على هيئة تاج ملكي يغشى الخاتم من خلال فروجه

ولما احتفل بعيد البابا الاسقفي (يوبيله الذهبي) سنة ١٧٩٢ أهداه السلطان هدية كانت عنده وعند أهل ملته أنفس من الاولى وهي الكتابة التي يقولون ان القديس ابرفيوس أسقف هيرابوليس وتلميذ يوحنا الحبيب نقشها في أواسط القرن الثاني الميلادي على صفيحة اوصى بأن تجعل فوق ضريحه.

ولو أردنا ان نذكر ماخدم به ملته وأمته في الصين واليابان والحبشة وفي سائر البلاد البلاد لخرجنا الى التطويل الذي ليس من موضوعنا ولا من غرضنا لان العبرة التي نقصدها تتم لنا بالقليل الذي يغني عن الكثير . فكيف بنا اذا حاولنا إحصاء المكاتب والمدارس ، والاديار والكنائس ، والملاجئ والمستشفيات ، والرهبان والراهبات ، والاطباء والممرضات ، والمبشرين والمربيات ، والمعلمين والمعلمات ، والمتنصرين والمتنصرات ،

هل من الحكمة والرأي أن نجهل مايفعله القوم من خدمة دينهم وتمره وان نكتم مايتفق لنا علمه لانه مما يمدحون عليه؟ هل تقضي علينا الغيرة الدينية بأن نسمي جهلنا علما ، وتقصيرنا تشميرا ، وضعفنا قوة ، وان نسمي حذقهم بلادة ، ونشاطهم كسلا ، وعلمهم جهلا ، وقوتهم ضعفا؟

منزلة ماخلتها يرضى بها لنفسه ذو أدب ولا حجى

لاشيء أنفع من معرفة الحقيقة والواقع ولا شيء أضر من الجهل بالحقيقة والواقع ومن أنهكه المرض حتى صار حرضا وأشرف على الهلاك ويئس من روح الله لا يرضيه الا ان يغش نفسه بالمدح الكاذب ويكابر حسه وعقله فيذم من مناظريه مايراه محمودا . وانا نبدئ هذا القول ونعيده ثم اننا نجد ممن يطلعون عليه من يقول : ان مجنا الذي ينصح لنا هو من يمدحنا ويمدح رؤساءنا ولو بالباطل وينكر حقوق من يخالفنا ويذمهم ولو كاذبا . والعلة في هذا ان هؤلاء الضعفاء لاغرض لهم من حياتهم الا اللذة ،

والحق مرّ في ذائقة المبطلين ، والجد ملول عند الهازلين.

اليكم عنا ياعشاق اللذة الباطلة ، ومحبي الجهالة القاتلة ، لسنا نكتب لكم وانما نكتب لقوم استعدوا لقبول العلم انتافع وهو كما قال الاستاذ الامام « مايعرفك من أنت ممن معك » فالى هؤلاء نسوق هذه الترجمة ونقول : أين علماؤكم الاعلام ، أين الذين تلقبونهم بمشايخ الاسلام ، أين الامراء الذين انتحلوا لأنفسهم الرياسة الدينية ، وزعموا انهم أولوالأمر الذين تجب طاعتهم على الرعية ، خبرونا ماذا تعلموا وماذا عملوا حتى استحقوا هذه الرياسة ، وهل كان للامة رأي في اختيارهم لها ، وبماذا خدموا الاسلام فيها ، هل يعرف شيخ الاسلام حدود بلاد المسلمين ، هل وقف على شيء من أحوال شعوبهم في الدنيا والدين ، هل سعى لهم بانشاء مدرسة كلية أو جزئية ، هل أرسل الى بعض بلادهم بعثة دينية ، هل كشف لهم شبهة اعتقادية ، هل حلّ لهم مشكلة سياسية ، هل كاتب العلماء في غير بلاده ، هل حاول ان يصل ودادهم بوداده ، هل خطر بباله أن يعد طائفة من العلماء ، للقيام بمثل هذه الاعباء ، ؟ ؟

كلا ان المسلمين ليس لهم جمعيات دينية ولا دنيوية تنتخب لهم شيخا مستعدا لخدمة الاسلام فتسميه « شيخ الاسلام » ويكون مطالبا من المسلمين وانما اخترع هذا اللقب الامراء الذين استقلوا بالزعامة الدينية والدنيوية فثقل عليهم الجمع بين شعار رؤساء الدين وبين التمتع بالشهوات وحضور مجالس اللهو والشرب والرقص فجعلوا هذا الشعار لبعض العلماء الرسميين الذين يأخذون شعار العلم والدين من الامير أو السلطان فالامير يصل الى مقاصده الدينية بعمامة « شيخ الاسلام » وجبته ويتمتع هو بما شاء بزي السياسة ، وشيخ الاسلام وسائر أصحاب المناصب الدينية من القضاة والمفتين والمدرسين الرسميين والخطباء وأئمة المساجد يعترفون للامير بالرياسة الدينية الكبرى بما يمنحهم من الرتب والرواتب ، والاوسمة والمناصب ، ؟ فما هؤلاء لخدمة الاسلام والمسلمين ؟

اذا أراد الحاكم الذي يولي شيخ الاسلام وغيره من المشايخ مناصبهم ويزين صدورهم وأكتادهم وعمائمهم بالنسيج الفضي يتلألأ عليهم في أيام الاعياد ـ ان يكلفهم بعمل ينفع الاسلام فانهم يجتهدون في القيام به ما استطاعوا كما اجتهدوا في

خدمة هؤلاء الحكام فيما يضر ولا ينفع وأولوا لهم ما أولوا ، حتى غيروا ما غيروا وبدلوا ما بدلوا ، واذا لم يرد الحاكم لا يريد شيخ الاسلام فان الانسان مادام محروما من الاستقلال يكون تابعا لمن يرى بيده منفعته ومضرته . ولو كان المسلمون هم الذين ينصبون «شيخ الاسلام» كما عهد اليهم ان ينصبوا السلطان والامام ، لكان شيخ الاسلام تابعا لارادتهم ؛ وعاملا بمشاورتهم لمصلحتهم ، وسنكتب نبذة خاصة في كيفية انتخاب البابا ونبين فيها حكم الانتخاب عند المسلمين